

أثر الشعر العربي القديم في إبداع أبي مدين شعيب

د. حسين فارسي

جامعة تلمسان

مما لا شك أن كل أديب شاعر كان أو كاتباً مطلع على أدب من سبقوه، ومتأثر بإنتاجهم. ونحاول قدر الإمكان أن نعرض بعض نماذج من الأشعار والموشحات والأزجال التي تظهر بعض ملامح تأثر أبي مدين شعيب بغيره، وتأثيره في من جاء بعده...

لقد تأثر أبو مدين شعيب بشعراء الغزل العذري من ذلك أنه يقول مثلاً: ⁽¹⁾

لقد نبتت في القلب منكم محبة
ويقول قيس بن ذريح ⁽²⁾:
كما نبتت في الراحتين الأصابع

لقد رسخت في القلب منك محبة
ويقول في رواية أخرى ⁽³⁾:
كما رسخت في الراحتين الأصابع

وقد نشأت في القلب منكم محبة
وبالموازنة بين بيت أبي مدين شعيب وما قاله قيس بن ذريح بالروايتين المذكورتين آنفاً نجد أن أبا مدين شعيب قد حاكى قيس بن ذريح في الوزن والقافية والرّوي والمعنى.

فالبيتان من بحر الطّويل وقافيتها « صابغوا » ورويّهما حرف العين. غير أن أبا مدين شعيب غيّر بعض الكلمات في البيت فجاء بكلمة « نبتت » بدل « رسخت » أو « نشأت » وأورد كلمة « محبة » عوض كلمة « مودة ».

والبيتان متفقان في المعنى إذ أكّد الشاعران كلاهما أن المحبة راسخة في القلب وقد شبّهاها بنشوء الأصابع في الراحتين.

وبعودتنا إلى قصيدة « تذللّت في البلدان » نقف على تناسّ بين أبي مدين شعيب وشاعر آخر لم نعر على ترجمة له هو « عمرو الزّواق ».

يقول أبو مدين شعيب: (4)

فلو كان لي قلبان عشت بواحد
ولكنّ لي قلبا تملكه الهوى
واترك قلبا في هواك يعذب
فلا العيش يهنا لي ولا الموت أقرب

ويقول عمرو الوراق :

فلو كان لي قلبان عشت بواحد
ولكنّما أحيا بقلب مروع
وخلفت قلبا في هواك يعذب
فلا العيش يصفو لي ولا الموت أقرب

ولو فرضنا أن « عمرو الوراق » عاش قبل أبي مدين شعيب فإننا نقول بأن الثاني قد ضمّن قصيدته بيتين من شعر الأول، إذ يتفق بيتا أبي مدين شعيب مع بيتي عمرو الوراق في البحر، والروي غير أن أبا مدين شعيب تصرّف بعض الشيء فجاء بكلمة « اترك » بدل « خلّفت » وأورد الفعل « يهنا » عوض الفعل « يصفو » واتى بكلمة « أقرب » في صيغة اسم التفضيل بدل الفعل في صيغة المضارع وما يسترعي انتباهنا أكثر هو أنّ أبا مدين شعيب لم يكتف بتغيير بعض الألفاظ بل غير شطرا بكامله، فهو في الشطر الأول من البيت الثاني يقول:

« ولكنّ لي قلبا تملكه الهوى » أمّا عمرو الوراق فيقول: « ولكنّما أحيا بقلب مروع ».

ونقف على تناصّ آخر بين أبي مدين شعيب ومجنون ليلى، إذ نظم أبو مدين شعيب قصيدة « تذللّت في البلدان » ونسجها على طريقة قصيدة « متى يشتفي منك الفؤاد المعذب » لقيس بن الملوّح.

وإذا وزنا بين القصيدتين وجدنا أن الشاعرين كليهما نظما قصيدتيهما على بحر الطويل، واختارا لهما حرف الباء رويّا واتفقت القصيدتان في الموضوع، إذ صوّر كلّ شاعر معاناته وهجر المحبوب له.

ونثبت فيما يلي البيتين اللذين ضمّنهما أبو مدين شعيب من كلام قيس من الملوّح:

يقول أبو مدين شعيب: (5)

كعصفورة في كفّ طفل يضمّها
فلا الطّفل ذو عقل يحنّ لما بها
تذوق سياق الموت والطّفل يلعب
ولا الطّير ذو ريش يطير فيذهب

ويقول مجنون ليلى: (6)

كعصفورة في كفّ طفل يزمّها
فلا الطّفل ذو عقل يرقّ لما بها
تذوق سياق الموت والطّفل يلعب
ولا الطّير ذو ريش يطير فيذهب

لقد تصرّف أبو مدين شعيب في بيتيه وهو يضمّمها كلام إمام العاشقين قيس بن الملوّح، إذ غيّر بعض الكلمات من ذلك مثلاً أنّه جاء بكلمة « يضمّمها » بدل كلمة « يؤمّها » وأورد كلمة « سياق » عوض كلمة « حياض » واستبدل فعل « يرقُّ » وأورد كلمة « سياق » عوض كلمة « حياض » واستبدل فعل « يرقُّ » بالفعل « يحنُّ »

إنّ التناصّ في القصيدتين المذكورتين آنفاً يكاد يكون معنى ولفظاً وصورة وشكلاً إلا أنّ الاختلاف بين الشاعرين يكمن في أنّ موضوع قصيدة مجنون ليلي هو الحبّ البشري وموضوع قصيدة أبي مدين شعيب هو الحبّ الصّوفي.

ونلمس في قصيدة « تذللّت في البلدان » تأثّر أبي مدين شعيب بمجنون ليلي، إذ نراه في بيت من القصيدة يحثّ السالكين على تلذّذ عذاب الحجر والصدّ والموت من العشق كما مات قيس بن الملوّح فيقول: (7)

فيا معشر العشاق موتوا صباةً كما مات بالهجران قيسُ المعدّب

ولا يقف تأثّر أبي مدين شعيب بمن سبقه من الشعراء عند هذا الحدّ بل راح يقتبس أفكار غيره، ويضمّن شعره، ونسوق مثالا على ذلك فهذا شهاب الدّين السّهروردي يصف حال الصّوفية في وجدهم فيقول: (8)

بالسرّ إن باحوا تباح دماؤهم وكذا دماءُ العاشقين تُباح

وفي نفس المعنى يقول أبو مدين شعيب: (9)

وفي السرّ أسرارٌ دقاقٌ لطيفة تُراق دماناً جهرَةً إن بها بُحنا

فالشّاع ران كلاهما عبّرا عن فكرة واحدة هي أنّ الصّوفية في حال وجدّهم تترأى لهم الأسرار التي يجب كتمّها على الغير فإنّهم باحوا بما استبيحت دماؤهم يقول قيس بن الملوّح في إحدى قصائده: (10)

أمرٌ على الدّيار ديار ليلي أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حُبّ الدّيار شغفٌ قلبي ولكن حُبّ من سكن الدّيارا

ويقول أبو مدين شعيب: (11)

أمرٌ على الأبواب من غير حاجةٍ لعلّي أراكم أو أرى من يراكم

إنّ أبا مدين شعيب اقتبس فكرة قيس بن الملوّح والتي مضمونها ان الشاعر كان يمرّ على ديار قبيلة ليلي ولم يكن همّه حبّ تلك الدّيار ولكنه كان شغوفاً بحبّ من آوت إلى تلك الدّيار وهي ليلي العامرية وكذلك أبو مدين شعيب كان يمرّ على الأبواب متمنياً رؤية المحبوب.

ويورد محمود نسيم الشّاذلي قصيدة لشاعر مجهول يقول في مطلعها (12):

أَيَّامُنَا بِلِقَائِكُمْ أَفْرَاحُ وَجَمِيعُ أَيَّامِ الْمَلَاكِ مَلَاخُ

ويقول أبو مدين شعيب في قصيدة مطلعها (13):

يَا صَاحِ لَيْسَ عَلَيَّ الْمُحِبُّ جُنَاحُ إِنَّ لَاحَ مِنْ أَفْقِ الْوَصَالِ صَبَاحُ

إذا وازنّا بين هاتين القصيدتين نقف على تقاطع بين أبي مدين شعيب والشّاعر المجهول، ذلك أنّ القصيدتين تُظمتا على بحر الكامل وعبرتا عن موضوع واحد هو المحبة عند الصّوفية ولو ادّعينا أن الشّاعر المجهول عاش في فترة متأخرة عن زمان أبي مدين شعيب، فإنّه يجوز لنا أن نقول: إن الشّاعر المجهول نظم قصيدته بعد الإطّلاع على قصيدة أبي مدين شعيب، كما أنّنا نلمس بعض مظاهر التأثير ذلك أن الشّاعر المجهول وظّف في قصيدته بعضاً من ألفاظ أبي مدين شعيب المنتهية بحرف الحاء مثل: « جناح - الأرواح - الفتح ».

كما نلمس اقتباس الشّاعر المجهول فكرة من أفكار أبي مدين شعيب يصف فيها لذّة ال شرّاب إذ يقول: (14)

قُمْ يَا نَدِيمِي إِلَى الْمَدَامَةِ وَاسْقِنَا خَمْرًا تَنْبُرُ بِشَرْبِهَا الْأَرْوَاحُ

وعبر الشّاعر المجهول عن نفس الفكرة فقال (15):

شَرَبُوا كُؤُوسَ الْحَبِّ فِي حَانَ الصِّفَا فَتَمَايَلَتْ سُكْرًا بِهِ الْأَرْوَاحُ

ونختم حديثنا عن تأثر أبي مدين شعيب بأسلافه من الشّعراء بإبراز تقاطع بين الحلاج وأبي مدين شعيب.

يقول الحلاج (16):

أَنَا مِنْ أَهْوَى وَمِنْ أَنَا نَحْنُ رُوحَانِ حَلَلْنَا بَدَنَا

نَحْنُ مُذْكَتَا عَلَى عَهْدِ الْهَوَى يُضْرِبُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ بِنَا

فَإِذَا أَبْصَرْتَنِي أَبْصَرْتَهُ وَإِذَا أَبْصَرْتَهُ أَبْصَرْتَنَا

أيها السائل عن قصتنا

لو ترانا لم تُفرق بيننا

روحه روحي وروحي روحه

من رأى روحين حلت بدنا

ونعتقد أن أبا مدين شعيب قد اطلع على أشعار الحلاج واقتبس منه فكرة الغيبة عما سوى الحق، وقد توحد المحب والمحبوب فصارا واحداً وكانت العلاقة علاقة حضور، فقال في أحد موشحاته: (17)

فانتبهت للخطاب

وسمعت مني

كلّي عن كلّي غاب

وأنا عني مفني

وارتفع لي الحجاب

وشهدت أني

ما بقي لي آثار غبت عن أثري

لم أجد من حضر في الحقيقة غيري

وبعد أن عرضنا نماذج حاولنا من خلالها أن نبرز مظاهر تأثر أبي مدين شعيب بمن سبقه من الشعراء، نحاول فيما يلي أن نوضح ما تركه أبو مدين شعيب من أثر في شعر من جاء بعده.

الهوامش

- ¹ (أبو مدين شعيب: الديوان، ص: 64.
- ² (يوسف اليوسف: الغزل العذري، دوان المطبوعات الجامعية. الجزائر عام 1981، ص: 89.
- ³ (المرجع نفسه، ص: 136.
- ⁴ (أبو مدين شعيب، الديوان، ص: 61.
- ⁵ (أبو مدين شعيب: الديوان، ص: 61.
- ⁶ (مجنون ليلي الديوان: - تحقيق عبد الستار أحمد فرج. دار مصر للطباعة. القاهرة. ص: 21.
- ⁷ (أبو مدين شعيب: الديوان، ص: 61.
- ⁸ (ابن أبي حجلة: اخبار العشاق تحقيق محمد إبراهيم الدسوقي. دار النصر للطباعة الإسلامية، د. ط. القاهرة 1994 ص: 64.
- ⁹ (أبو مدين شعيب: الديوان، ص: 60.
- ¹⁰ (ابن أبي حجلة: اخبار العشاق، ص: 19.
- ¹¹ (أبو مدين شعيب: الديوان، ص: 64.
- ¹² (محمود نسيم الشاذلي: سفينة النجاة المرضية في أناشيد السادة الشاذلية الفاسية. مكتبة القاهرة، ط1 القاهرة. د. ت. ص: 256.
- ¹³ (أبو مدين شعيب. الديوان، ص: 66.
- ¹⁴ (المصدر السابق، ص: 67.
- ¹⁵ (محمود نسيم الشاذلي: سفينة النجاة المرضية في أناشيد السادة الشاذلية الفاسية، ص: 256.
- ¹⁶ (الحلاج: الديوان. ترتيب وتعليق محمد باسل عيون السود. دار الكتب العلمية، ط1، بيروت 1419 هـ / 1978م ص: 158-159.
- ¹⁷ (أبو مدين شعيب: الديوان، ص: 58.